إعادة اكتشاف القوة الناعمة لمصر

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

راكمت مصر رصيدا كبيرا من القوة العسكرية المتقدمة، وتوسعت في أدواتها الأمنية، وتحاول زيادة الفعالية الاقتصادية بالتوسع في مشروعات تنموية ذات مردودات مادية، لكنها لم تعمل بالهمة ذاتها على المستويات الثقافية والفنية والإعلامية، بما يتناسب مع رغبتها في التأثير الإقليمي الذي يحمل نتائج سياسية تخدم مصالحها الحيوية.

لم تستثمر الحكومة في الرصيد التاريخي الذي منح مصر دورا رائدا في محيطها العربي والأفريقي في حقب سابقة، ولم تستفد من الفراغ الحاصل في الكثير من العواصم العربية التي كانت تمثل منافسا رئيسيا لها، مثل بغداد ودمشق وبيروت، واضمحلال دورها الثقافي، وأهملت الاعتماد على الوسائل التي تمكنها من توسيع نطاق حضورها الناعم وما يحمله من حصيلة متنوعة للدولة وتطلعاتها السياسية.

أسهمت الأزمات الطبيعية والصراعات والحروب الدائرة بالمنطقة في التعويل على سلاح المساعدات والمعونات، فقد هرعت القاهرة في أوقات كثيرة إلى إرسال شحنات من الأدوية والمعدات الطبيعة والمواد الغذائية إلى الدول التي تعاني من نقص حاد، ولعب سلاح الجو المصري دورا مهما في نقل الكثير من المساعدات إلى الدول المنكوبة.

كثفت القاهرة من تصرفاتها في هذا الاتجاه وبدت كأنها تختزل قوتها الناعمة فيه، حيث يتناسب مع توجهات النظام الحاكم بشأن فكرة الدور الإقليمي، وتجاهلت توظيف المفهوم الشائع للقوة الناعمة في الأدبيات السياسية، وكانت مصر من الدول التي أولت له اهتماما في الماضي، وحجزت مكانة متقدمة بما امتلكته من رصيد ثقافي غزير ومتعدد الوجوه، لا تزال إفرازاته تتردد في أركان العالم العربي حتى الآن.

عرّف الأستاذ في جامعة هارفارد جوزيف ناي القوة الناعمة بأنها "القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً من الإرغام أو دفع الأموال، وتنشأ من جاذبية ثقافة بلد ما، ومثله السياسية، فعندما تبدو السياسة مشروعة في عيون الآخرين تتسع القوة الناعمة".

تكثيف الحديث عن قمم الثقافة والاحتفاء بالأموات يشير إلى ندرة الأمثلة الموازية لهم من الأحياء ويؤكد غياب المشروع الرسمي الذي أنتج أسماء كبيرة في الماضي وجعل مصر منارة ثقافية في المنطقة

تحاول القاهرة إعادة اكتشاف هذه القوة بما يتواءم مع مقاييس النظام الحاكم الذي اختزلها في مفاهيم أقرب إلى القيم المادية من المعنوية، وهو ما انعكس سلبا على التأثير الثقافي لمصر، وكل ما يحدث من أدوار في هذا السياق يبدو أقرب إلى الكرنفالات التي تخاطب الداخل أكثر من الخارج، على غرار تقديم مجموعة من الأعمال الدرامية خلال شهر رمضان كل عام، والحفاظ على شكل مهرجانات السينما والموسيقى والغناء التي تريد إظهار صورة فنية مؤقتة ولا تعبر عن حالة دائمة.

تحتاج الديمومة إلى توسيع في مجالات الاهتمام، ومنح المبدعين فرصة لتقديم أعمال فنية راقية بلا قيود أو كوابح ودون تسخيرها لأهداف معينة ولا تفيد الدولة المصرية في مسألة القوة الناعمة التي تتطلب مروحة ثقافية واسعة تأخذ في حسبانها محددات السياسة الخارجية وتنفيذ أهدافها من خلال أدوات مبتكرة وغير تقليدية.

تعبر "النوستالجيا" أو حالة الحنين إلى الماضي الظاهرة في الكثير من وسائل الإعلام المصرية عن فقر في القوة الناعمة في الوقت الحاضر، ويشير تكثيف الحديث عن قمم الثقافة والفن والصحافة والاحتفاء بالأموات إلى ندرة الأمثلة الموازية لهم من الأحياء، ما يؤكد غياب المشروع الرسمي الذي أنتج أسماء كبيرة في الماضي، وجعل مصر منارة ثقافية في المنطقة، وأكسبها تأثيرا سياسيا مهما.

قد يجد الكثيرون أسماء مصرية لامعة في مجالات عدة ولها أدوار نوعية وبارزة، لكن التدقيق في غالبيتها يجدها تنحصر في نطاق الاجتهاد الفردي، وفي معظمها بعيدة عن رعاية الجهات الرسمية، فلم تقدم الدولة مشروعا يعزز رغبتها في استثمار القوة الناعمة.

من حصلوا على جوائز ثقافية ومن تفوقوا في الألعاب الرياضية المختلفة، وحتى الأطباء والعلماء الذين قدموا خدمات جليلة للبشرية من المصريين، نتاج جهود شخصية قاموا بها، إذ توافرت لهم البيئة اللازمة للإبداع في الدول التي قدموا إنتاجهم فيها، أو طوروا مواهبهم من دون رعاية مقننة من الدولة، حتى لو استثمرت قفزاتهم.

لم تقدم الدولة المصرية ما يثبت أنها معنية حقا بفكرة القوة الناعمة، مع أن أمامها فرصة ذهبية لتوظيفها في خدمة أهدافها السياسية، فهناك مبدعون يحتاجون إلى رعاية أجهزة الدولة، وهناك الكثير من المجالات التي يمكن العمل فيها لتحسين الصورة الذهنية وكسب مساحة ثقافية تمكن الاستفادة منها في قضايا سياسية، فضلا عن الاعتدال في التوجهات الخارجية ودعمه للمضمون الخفي الذي تحمله القوة الناعمة.

خسرت القاهرة جزءا من معركتها في سد النهضة الإثيوبي، لأنها فقدت بريقها في القارة الأفريقية وأهملت الكثير من دولها سنوات طويلة، ما جعل خطابها السياسي أقل تأثيرا، فبعثات الأزهر في ربوع القارة تقلصت، ودور الكنيسة القبطية التاريخي توارى في أديس أبابا، والحضور الثقافي والإعلامي تلاشى تقريبا، ما ترك الفضاء سانحا أمام ترويج تصورات إثيوبيا المناهضة للمصالح المصرية.

يعتمد نشاط القاهرة الحالي مع دول عديدة على مقومات مادية بحتة، حيث تتوسع في التعاون الاقتصادي وتقديم مساعدات فنية وتنموية، وتعتقد أنها كافية لزيادة النفوذ والتأثير، في محاولة لتغيير مفهوم القوة الناعمة بطريقة تتجاهل القيم التي عرفتها سلفا وقادت إلى التوسع في الاعتماد عليها واعتبرتها واحدة من أدوات السياسة الخارجية.

تعكس هذه المسألة حالة من القطيعة مع الماضي الحافل بنماذج حققت للقاهرة فوائد سياسية مختلفة، ومع الحاضر الذي تتصاعد فيه تأثيرات التكنولوجيا وما تنطوي عليه من روافد ثقافية وفنية وإعلامية، والتي تتطلب المزيد من الاهتمام بها، وإذا أرادت أن يكون لها مكان تحت شمس عالم تتصارع فيه ثقافات متباينة عليها أن تقدم مشروعا وافيا يستفيد من الوفرة في المواهب المصرية.

ليس شرطا أن يقوم هذا المشروع على إطلاق الحريات وتبني معايير الديمقراطية على الطريقة الغربية التي تمثل إزعاجا للبعض، فقد كان تأثير القوة الناعمة في عهد الرئيس الراحل جمال عبدالناصر في أوج مجده والبلاد تعيش حالة قاتمة من القمع السياسي الذي لم يوازه قمع في الإبداع، وهو ما أتاح للقاهرة فائضا من القوة الناعمة.

ربما يكون التباين في الأجواء والقيادات وأنماط التفكير والأهداف وآليات تحقيقها لدى الطبقة الحاكمة، لكن لا تزال فوائد القوة الناعمة لم تختلف كثيرا، فهي بحاجة إلى ضبط للبوصلة السياسية وعزيمة وإرادة وإيمان بما يقدمه الإبداع من مزايا كي يصبح منتجا، وثمة فرصة تنتظرها من خلال مشروع محكم يعيد إحياء دور الثقافة والفن وما يحملانه من تأثيرات متعددة.

شعوب العراق غير المتآخية

علي الصراف
كاتب عراقي

منذ قديم الزمان، تعيش في العراق شعوب غير متآخية. سخطها الله عدة مرات، وسلط عليها ابتلاءات كثيرة، لم يكن "طوفان نوح" سوى واحد من أولها، ثم تلتها ابتلاءات من قاع الجحيم مثل الغزو المغولي ثم الصفوي ثم العثماني ثم البريطاني ثم الأميركي ثم الصفوي من جديد، ثم داعش، وهكذا على طول الخط. والسبب في ذلك إنما يعود إلى حقيقة أن هذه الأرض ظلت تعيد إنتاج ذات الشعوب غير المتآخية.

وحيث أن الجميع يستطيع الزعم أنهم "عراقيون"، فإن الناظر إليهم من مسافة مترين (ليس تحاشيا لكورونا فقط) سوف يعجز عن أن يعرف إلى أي شعب ينتمي هذا الشخص أو ذاك.

ولقد جرت محاولات عديدة للفصل بين بعض هذه الشعوب عن بعضها الآخر. فاستخدمت بعض الحكومات السجل المدني والإحصاءات السكانية لكي تعرف من هو الصالح أو الطالح بين هذه الشعوب، فعجزت عن تقديم إحصاء دقيق. ومثلها فشلت المحاولات التي ابتغت أن تطرد من العراق كل من اعتبرتهم إيرانيين من حيث الأصول، وصاروا يسمون بلقب "التبعية"، أي الذين يتبعون لقوم آخرين. وسرعان ما أتضح أن "شعب البلاء والابتلاء" أو "شعب التغطية على الظلم والفساد" ظل موجودا. وظل من المستحيل معرفة مَنْ هم وكم هو عددهم. وعندما جاء الغزو الأميركي، فإنه سرعان ما دخلت معه "كتائب البلاء والابتلاء" المهاجرة التي تتبع الحرس الثوري الإيراني. وحصل أن ظهر بينهم معممون يعرفون الحلال والحرام، بينما هم من كل منحدر لا أخلاقي ينحدرون. وصار العثور على إحصاء دقيق لمعرفة عدد نفوس شعب "البلاء والابتلاء" أمرا أصعب من أي وقت. حتى جاءت الانتخابات البرلمانية الأخيرة، لتتضح الأرقام للمرة الأولى في التاريخ.

هناك شعب من الأبرار والخيّرين والطيبين ممن يعتبرون أنفسهم من أصلاء الطبع والطباع. ولكن هؤلاء، حتى وإن كانوا هم الأكثرية، إلا أنهم ليسوا بالقوة التي يمكنها أن تكافح "شعب البلاء والابتلاء"، لاسيما وأن أبناء هذا الشعب الأخير لا تعوزهم القدرة على ممارسة كل أعمال "الكلاوات" (الخداع) للزعم أنهم أصلاء الطبع والطباع أيضا.

سوف يقال قطعا إن "الشعب العراقي" هو الذي أعاد انتخاب الأحزاب الطائفية الموالية لإيران، وهي ذاتها الأحزاب الموالية للفساد والانحطاط السياسي والأخلاقي، إلا أن هذا سيكون نوعا من الخلط الذي لا مبرر له بين شعبين مختلفين أو ثلاثة.

الانتخابات الأخيرة وفرت فرصة نادرة، وقريبة من الدقة، لمعرفة كم عدد هؤلاء وأولئك، وما هي نسبهم حيال "الشعوب الأخرى".

وأقول "قريبة من الدقة" لأن التقنيات التي توفرت من خلال التصويت عن طريق البطاقة البيومترية، تكاد لا تتيح أي تصور عن وجود أخطاء في العد. وسيكون من الجائز القول إننا نضع هنا أول إحصاء سكاني من نوعه لمعرفة عدد أبناء "البلاء والابتلاء" في العراق.

في النهاية فإن «الفاسد» يظل فاسدا شيعيا كان أو سنيا وهم يتحالفون مع بعضهم البعض لأن منهج «الفساد» السياسي هو الذي يجمعهم ويوحد أهدافهم وتطلعاتهم لخدمة أبناء شعبهم من الفاسدين

"الطيور على أشكالها تقع". أظن أن هذا أمر لا جدال فيه. والمرء الذي ينتخب "فاسد" لإيران، لا بد وأن يكون هو نفسه "فاسد". والذي يقدم صوته لحرامي، لا بد وأن يكون هو نفسه حراميا أيضا. ولا أريد أن أذهب أبعد من ذلك في تقديم الأوصاف، احتراما لقدر المكان.

وكان شاعر شعبي عراقي، تم تداول قصيدته على نطاق واسع، بدأ بالقول في إدانته للشعب الآخر: "توبة، توبة. توبة منهم – طاح حظه اللي ينتخبهم"، ثم تابع ليقول: "طاح حظه اللي ينطي صوته – للي سفكوا دم إخوته، للي سرقوا ثمن قوته،.." (الخ).

هذه القصيدة قدمت وصفا موجوعا لأعمال "شعب البلاء والابتلاء" وأحزابهم المناضلة في الفساد. إلا أن انتشار القصيدة لم يدفع هذا الشعب إلى التخفي وراء الستائر. وذلك لسبب بسيط، هو أنهم صاروا قوة عددية ضخمة.

ولا شيء طائفيا في هذا الأمر. على الإطلاق. ذلك لأن هذا الشعب موجود بين كل الطوائف. ففي النهاية، فإن "الفاسد" يظل فاسدا، شيعيا كان أو سنيا. وهم يتحالفون مع بعضهم البعض لأن منهج "الفساد" السياسي هو الذي يجمعهم ويوحد أهدافهم وتطلعاتهم لخدمة أبناء شعبهم من الفاسدين، على حساب مصالح الشعوب الأخرى، وعلى حساب مصالح العراق الوطنية.

ولقد حققت أحزاب هذا "الشعب" فوزا كبيرا بفضل ما تمكنت منه من "كلاوات" وأعمال نصب وشراء ضمائر وما قالت المفوضية العليا المستقلة إنه "يرقى إلى مستوى الجرائم الجنائية".

ولكن مَنْ يحاسب مَنْ، إذا كان شعب "البلاء والابتلاء" هو الناخب الأكبر؟ ومَنْ يحاسب مَنْ إذا كانت "الفسدنة" هي المنهج السياسي السائد الذي يُهيمن على كل مفاصل الدولة، بما فيها "المفوضية العليا" نفسها التي خادعت الناس والأمم المتحدة ورب العالمين بماض أسود من التغطية على "كلاوات" هذا "الشعب العزيز وأحزابه في عدة انتخابات سابقة. وهي مثلها مثل "هيئة مكافحة الفساد" التي لم تكافح شيئا قدر ما كافحت في ممارسته والتغطية عليه.

ولكن بقيت معرفة العدد. ففي النهاية يحتاج كل شعب من هذه الشعوب غير المتآخية أن يعرف وزنه العددي. وهذه هي المرة الأولى منذ طوفان نوح قبل نحو 7000 سنة، صار بوسعنا أن نعرف عدد نفوس شعب الأبرار ونظرائهم من الشعب المكافح في الظلم والضلال.

لقد بلغ عدد المؤهلين للانتخاب 24900000 وقرر شعب الأبرار أن ينأى بنفسه عن القصة برمتها لكي لا يجد نفسه في ورطة أخلاقية، وبلغ عددهم 14059002 مواطن معظمهم من المقهورين وضحايا الفقر والاضطهاد والحرمان. وهم ليسوا بـ"أغلبية صامتة" على الإطلاق إذ أنهم لم يكفوا عن التظاهر والاحتجاج على ما انتهى إليه عراقهم بأيدي أهل الجريمة والفساد.

ومن أصل 10840998 ناخبا شاركوا بالتصويت، فقد صوت لصالح "التشرينيين" نحو 900 ألف ناخب حاولوا أن يمثلوا "الأغلبية غير الصامتة". ولكن اتضح أن "شعب البلاء والابتلاء" يبلغ عدده 4745861، بينهم 3449556 شيعيا، و1296306 سني، قدموا أصواتهم لأحزاب الفساد، وليس من بين هؤلاء الناخبين الأكراد، فهؤلاء شعب ثالث، ولا أملك الأهلية الأخلاقية للفصل بين فئاته. وهذه مهمة يجدر بصحافي كردي أن يقوم بها.

أكثر من أربعة ملايين وسبعمئة ألف مخدوع أو ولائي أو فسدان أو بائع ذمة، ممن أبتلي بهم العراق، هم "شعب" يجسد طبيعة المأساة المديدة والمتواصلة في تاريخ العراق. وكل ما أخشاه هو أن يكونوا سببا لطوفان آخر.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
منى المحروقي

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk